القديم/ الجديد

عند المثقفين العرب

قديمنا جديد دائماً في نظر غالبية من مثقفينا وباحثينا. فما يكاد يصلنا شيء من الغرب- في العلوم الإنسانية واللغويات خصوصاً- حتى يهرع كثيرون إلى استخراج ما قالته العرب في ذلك الميدان ومحاورته ومداورته حتى بما لم يكن يرمي إليه الأصل بتاتاً، وبالتالي يظهر (فضل السبق) للعرب فيه.. ودون أن يخطر في بال اولئك (المنقبين التراثيين) عن هذه اللقى السباقة أن يتوقفوا ليسألوا أنفسهم:

-إذا كان أجدادنا قد فعلوا هذا، فما الذي فعلناه نحن، وكيف؟! وإذا لم نفعل شيئاً، فلماذا؟! وما زلت أذكر تلك (الحكاية/ النكتة) التي كانت تروى لنا ونحن طلاب حول ذلك البحث المتعلق بالذرة، والذي أرسله أحد مراكز البحوث الغربية إلى (المجمع العلمي العربي)- لا أذكر أين كان رواة النكتة يحددون مكانه، في دمشق أم في القاهرة- فرد رئيس المجمع برسالة شكر إلى مركز البحوث ذاك موضحاً فيها عدم الحاجة العربية إلى مثل هذه الموضوعات لأنها موجودة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خير يره، ومن يعمل مثقال ذرة شر يره}.

وسواء أكانت هذه (الحكاية/ النكتة) صحيحة أم موضوعة،

فإنها تشير التي توجّه عقلي قائم في أساليب التفكير لدينا بصورة ملحوظة.

وكثيرون منا يتذكرون ذلك السجال الذي دار- بشيء من الحدة- بين مصطفى محمود من مصر وبعض الماركسيين السوريين واللبنانيين حول قضية (دعوة الإسلام إلى الاشتراكية)، في مستهل السبعينيات على ما أذكر، ويومها لم نتمكن من قراءة مصطفى محمود ولكننا قرأنا الردود عليه في المجلات اللبنانية الرصينة! وبالطبع ما دار في خلد أي من المسلمين القدامى أي شيء عن التفكير (بالاشتراكية) فهذه الكلمة هي مصطلح غربي يدل على (وضع في سياق)، والسياق برمته متولد من رحم الرأسمالية.. والرأسمالية بمعناها الراهن لم يعرفها العرب. وعليه فهم قد تحدثوا بالعدل والعدالة وهما مفهومان من سياق ثقافي/ عقلي مختلف جذرياً عن السياق الذي توضّع فيه، أو تخلّق منه (مفهوم الاشتراكية).

ومَنْ مِن المثقفين العرب يمكنه أن ينسى تلك الدعوة التي وجهها روجيه غارودي لأول مرة في محاضرة له في القاهرة في نهايات الستينيات، حيث نصح الأنظمة التقدمية العربية آنئذ بأن تبنيَ الاشتراكية على مصادر تراثية عربية: مادية ابن رشد- وعلم اجتماع ابن خلدون- ونظام الحكم القرمطي؟!

وكثيراً ما يقرأ المرء بحوثاً حول (الألسنية العامة) فإذا الحديث يتطرق إلى فضل ابن جني مثلاً وسبقه "لدوسيسور" في ذلك، مع أن الأخير اشتغل بعلم اللغة وابن جني بفقه اللغة، وما أبعد الشقة بينهما!!

ونادراً ما يُذكر القاضي الجرجاني (عبد القاهر) إلا ويُذكِر

سبقه وفضله في الوصول إلى أوليات المناهج النقدية الغربية الحديثة من سيميولوجيا رولان بارت وبنيويته إلى توليدية تشومسكي.

أما عن سبق العرب في الرياضيات والفلك والطب.. وفضلهم على أوروبا في ذلك فالحديث يطول!

وحقيقة، إن العرب أيام ازدهار حضارتهم وسيادتها عالمياً أنجزوا ذلك كله، وغيره الكثير. ورغم ادعاء مفكّري المركزية الأوروبية، منذ بدايات النهضة ثم عصر الأنوار وما تلاه، بانتمائهم الحضاري، والمعرفي إلى الإغريق والرومان مباشرة، فإنهم- لدى التمحيص المدقق- مستفيدون أكبر الاستفادة من الإنتاج الفلسفي والعلمي العربي. ولكن هذا لا يسوّغ لنا ذلك الأسلوب من التفكير الذي أشرنا بداية إليه، ولا يعفينا بتاتاً من السؤال الأساسية السابق ذكره:

-نحن عرب اليوم ما الذي فعلناه، وكيف؟ وإذا لم نفعل فلماذا؟!! ولأننا حقيقة لم نفعل الكثير أو بالأحرى لم نفعل شيئاً ذا قيمة في مجال العلوم المعاصرة وتقنياتها التطبيقية لأسباب قد تكون خارجة تماماً عن إرادتنا، فإن الكثيرين منا يميلون إلى تلك المقارنات بين منجزات أوروبا الحديثة ومنجزات أجدادنا في حقول معرفية محددة، كنوع من العزاء أو آلية التعويض عن النقص والعجز اللذين نعاني منهما أمام ثقل وضغوط التطور الغربي الهائل والمكرس لإنتاج القوة الابتزازية: عسكرية وغير عسكرية.

ولأمر ما حصرنا مجال تلك المقارنات في الحقول النظرية وشبه النظرية.

ألم نحاول إيجاد أصول مسرحية عربية في تراثنا- رغم أن أجدادنا لم يعرفوا المسرح بمدلوله الحقيقي إطلاقاً!- حتى أن رجلاً كالدكتور علي الراعي وجد مسرحيات جاهزة في نصوص مقامات الحريري؟!

ألم يُرجع كثيرون فن القصة القصيرة إلى المقامة؟! وكادت السير أن تكون ملاحم؟!.. مثلما كادت حكايات ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وغيرها أن تصير أصولاً للرواية الفنية الحديثة؟!!

وحتى عندما كثر الحديث عن الديمقراطية وجدها كثير من العرب المسلمين في (الشورى)!!

وفي الندوة التي أقيمت حول (موجات الحداثة الشعرية العربية، ماذا قدمت وماذا بقي منها) ضمن فعاليات مهرجان المحبة الحادي عشر في اللاذقية، أفاض الأستاذ الشاعر فاروق شوشة رئيس اتحاد كتّاب مصر في تبيان أقدمية الحداثة في شعرنا العربي، حيث بدأ بالصعاليك وعدهم (حداثيين) قياساً إلى أصحاب المعلقات وأشباههم ثم عرج على أبي نواس وعدّه (حداثياً) في عصره لأنه كان "شاعر مدينة" ولأنه قال:

عاج الشقي على رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلدِ

مثلما قال ساخراً من الشعراء المستمرين في الوقوف على الأطلال في أيامه:

قل لمن يبكي على رسم درسْ ... واقفاً ما ضر لو كان جلسْ

كما لم يفته التوقف عند أبي تمام الذي عدّه أهم الحداثيين قديماً بسبب من معانيه المبتكرة وأساليب تعبيره الشعرية المفترعة... الخ.

ولم يفت الأستاذ فاروق شوشة غير أمرين اثنين بخصوص موضوع الحداثة:

أولهما: أنها في الأصل مصطلح غربي إشكالي قبسناه ناقلين دلالاته القلقة: تاريخاً وجغرافية وفناً ولغة، لنشير به إلى مرحلة من تاريخ شعرنا المعاصر، مرحلة القصيدة الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين.

ثانيهما: أنها قطع نهائي مع عمود الشعر شكلاً ومضموناً وبنية وأغراضاً أو وظيفة.

والمهم أن أسلوبنا في نبش تراثنا عن (لقى) فكرية وأدبية ننافس بها منجزات الغرب الحديث في هذين الميدانين هو أسلوب مستمر الحضور في طرائق تفكيرنا ما دام الغرب متفوقاً علينا.

فيا لعزائنا هذا من عزاء!!

❑❑